

فرغنا من الحديث في الورق ، ثم نفرغُ للكلام على الوراقين . وقد عقد ابن خلدون لهم فصلاً في مقدمته (١) بسط فيه صناعتهم فقال : ( كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط ، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة ، وقد ذهب العهدُ بذهاب الدولة وتقلص العمران ، بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس ، إذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ، ونفاق أسواق ذلك لديهما ، فكثرت التأليف العلمية والدواوين ، وحرص الناس على تناقلهما في الأفاق والأمصار ، فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساح والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتابية والدواوين ، واختصت بالأمصار العظيمة العمران ) . ويفهم من هذا أن الوراقة جاءت تابعة لقوة الدولة واتساع الحضارة ، وأن الوراقين كان لهم مكان في الأمصار العظيمة والبلدان الكبيرة ، فهم بمثابة المطابع الحديثة التي تحتل أمصار بلادنا الآن . وكانت مهمتهم موزعة بين الانتساح ، والتصحيح ، والتجليد ، والتذهيب ، وكل ما يمت إلى صناعة الكتب (صلة ) . وكانت لهم أسواق في بعض الأمصار ، كانت بمثابة المعاهد العلمية . وجاء في فهرست ابن النديم (٢) عن ابن دُرَيْد قال : ( رأيت رجلاً في الوراقين بالبصرة يقرأ كتاب المنطق لابن السكيت ) . وكانت صناعة هؤلاء الوراقين رائجة رواجاً . فالجاحظ (٣) يذكر أن يحيى ابن خالد البرمكي لم يكن في خزانه كتبه كتاب إلا وله ( ثلاث نسخ ) . ويذكر ابن الأثير أنه كان في خزانه سابور بن أردشوروز بهاء الدولة بن عضد الأول مائة مصحف بخط ابن مقله . ويذكر المقرئ أنه كان في خزانه العزيز بالله ٣٠ نسخة من كتاب العين و ١٠٠ نسخة من الجمهرة . وأنه كان في خزانه كتب الفاطميين ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري (١) . وكان العلماء يستعينون بالوراقين في التأليف . قال أبو بريدة الوضاحي (٢) : أمر أمير المؤمنين المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو ، وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ، ووكل بها جوارئ وخدمًا للقيام بما يحتاج إليه ، حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء ، حتى إنهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين يكتبون ، حتى صنف كتاب الحدود . وكانت ثقة القوم بالوراقين نازلة ، لأنهم لم يكونوا في الغالب من العلماء أو من أهل الرواية ، بل هم أهل صناعة وتكسب . وقد عرف الطعن فيهم قديماً . قال ثعلب (٣) في الكلام على كتاب العين : ( وقد حشا الكتاب أيضاً قوم علماء ، إلا أنه لم يؤخذ منهم رواية ، وإنما وجد بنقل الوراقين ، فاختل الكتاب لهذه الجهة ) . ومن أوائل هؤلاء الوراقين خالد بن أبي الهياج الذي سلف ذكره في فصل أوائل التصنيف ، ( الشمس وضحاها ) إلى آخر القرآن . فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال : « أريد أن تكتب لي مصحفاً على هذا المثال » . فكتب له مصحفاً تنوّق فيه ، فأقبل عمر يُقلبه ويستحسنه ، واستكثر ثمنه فردّه عليه . ومنهم مالك بن دينار السامى ، مولى بنى سامة بن لؤى ، البصرى الزاهد : كان أبوه من سبى سجستان ؛ وكان يكتب المصاحف بأجرة ويتقوّت بذلك . وممن كان يتقوت بالنسخ من العلماء أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم المهندس البصرى ، نزيل مصر ، المتوفى نحو سنة ٤٣٠ . ذكر القفطى (١) أنه كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن أشغاله ، وهى إقليدس ، والمتوسطات ، والمجسطى ، ويستكملها في مدة السنة ؛ فإذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيها مائة وخمسين ديناراً مصرية ، فيجعلها مؤونة لنفسه . ومن العلماء الوراقين أبو موسى الحامض (٢) ، وأبو عبد الله الكرمانى (٣) . ومنهم : ابن وداع ، وهو عبد الله بن محمد بن وداع الأزدي . النديم : ( حسن المعرفة صحيح الخط ، خطه يرغب الناس فيه ، وبأخذ حطة الثمن ) ، كناية عن زهده وقناعتة بالقليل من الأجر (٤) . ومن طريف ما يروى عن أحد النحاة ، وهو يحيى بن محمد الأرزنى ، ما ذكره ياقوت (٥) فى شأنه إذ يقول : ( إمام فى العربية مليح الخط سريع الكتابة ، كان يخرج فى وقت العصر إلى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصحى لثعلب ، ويبيعه بنصف دينار ، ويشترى نبيذا ولحمًا وفاكهة ، ولا يبيت حتى ينفق مامعه منه ) . ويروى ابن النديم (١) فى ترجمته ليحيى بن عدى المنطقى النصرانى أن يحيى كان ينسخ كتب التفسير والكلام ، مع أنه كان من النصرارى اليعقوبية . وهذا أمر عجب . ويذكر أنه لقبه وعاتبه على كثرة نسخه ، فقال له : من أى شيء تعجب فى هذا الوقت من صبرى ؟ قد نسخت بخطى سختين من التفسير للطبرى ، وحملتها إلى ملوك الأطراف ؛ وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ؛ ولعهدى بنفسى وأنا أكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة وأقل . وهذا النص وسابقه يبين لنا قوة المرانة التى كانت لهؤلاء الوراقين فى وممن عُرف بسرعة الخط هشام بن يوسف الأبنائى القاضى ، قال عن نفسه : قدم سفيان الثورى اليمن فقال : اطلبوا لى كاتباً سريع الخط . فارتادونى فكنت أكتب (٢) . ومنهم أبو على الحسن بن شهاب العكبرى ، كان حسن الخط يكتب بالوراقة ، وكان سريع القلم صحيح النقل . وكان يقول : كسبت فى الوراقة خمسة وعشرين ألف درهم راضية . وقد عثرت فى تاريخ بغداد للخطيب (٤) فى ترجمة الفراء على نص يلقى ضوءاً على الأجور التى كان الوراقون يتقاضونها فى عهد الدولة العباسية . وذلك عند الكلام على كتاب ( المعانى للفراء ) : أنه لما فرغ من كتاب المعانى ( خزنة الوراقون عن الناس ليكسبوا به ، وقالوا : لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس

أوراق بدرهم . فشكا الناس إلى الفراء، فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك ، فقالوا : إنما صَحَبناكَ لنتنفع بك ، وكل ما صنعه فليس بالناس إليه من حاجة ما بهم إلى هذا الكتاب ، فدعنا نعيش به . فقال : فقاربوهم تنتفعوا وينتفعوا . فأبوا عليه ، فقال : سأريكم ! وقال للناس : إني مُمل كتاب معان أتم شرحاً وأبسط من الذى أمليت . فجلس يملئ ، فأملئ الحمد فى مائة ورقة ، فجاء الوراقون إليه وقالوا : نحن نبلغ الناس ما يحبون . فتنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم . وهذا الأجر ينبيء فى جلاء واضح عن كثرة الوراقين بالقدر الذى يهبط به الأجر إلى هذا المستوى . لكن يبدو أن خطوط العلماء كان لها تقدير خاص ، كما سبق فى خبر يحيى بن محمد الأرزنى (١) . ومن ذلك ما أورده السيوطى فى البغية (٢) من أن السيرافى كان لا يخرج إلى مجلسه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم ، تكون بمقدار مؤونته . وعثرت كذلك على نص نادر لابن النديم فى الفهرست (٣) ، يذكر فيه مقدار الورقة التى يعينها فى كتابه ، وهى الورقة السلیمانية ، ( فإذا قلنا : إن شعر فلان عشر ورقات فإنما عيننا بالورقة أن تكون سلیمانية ، ومقدار ما فيها عشرون سطراً ، أعنى فى صفحة الورقة ) . وليس معنى هذا أن مقدار الورقة فى المخطوطة القديمة تعنى هذا القدر فإن مقادير الأوراق تتفاوت بلا ريب بين المخطوطة والأخرى . وإنما ذكرت هذا تسجيلاً لما يعنى ابن النديم فى كتابه . ومما يعيننا تسجيله أيضاً ما ذكر فى تقدير ( المجلد ) قديماً . جاء فى ترجمة يحيى بن المبارك اليزيدى عند ابن خلكان (٤) عن أبى حمدون الطبيب قال : شهدت ابن أبى العتاهية وقد كتب عن أبى محمد اليزيدى قريباً من ألف مجلد ، عن أبى عمرو بن العلاء خاصة ، فيكون ذلك عشرة آلاف ورقة ؛ لأن تقدير المجلد عشر ورقات . فكأن المجلد أطلق قديماً على ما يسمى بالكراسة (١) ، التى هى إلى وقتنا هذا تقدر بعشر ورقات . وكان بعض الوراقين يتجاوزون مهنتهم الأصلية إلى صناعة التأليف . ( كانت الأسمار والخرافات مرغوباً فيها مشتهرة فى أيام خلفاء بنى العباس وسيما فى أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا ، فكان ممن يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان ، واسمه أحمد بن محمد بن دلان ، وآخر يعرف بابن العطار ، وجماعة ) . وكما كان هناك ورّاقون قد نصبوا أنفسهم لهذه الصناعة فى السوق ، كان هناك ورّاقون خاصون . فمنهم : دماذ أبو غسان (٣) كان يروى عن أبى عبيدة ، وكان يورق كتبه ، وأخذ عنه الأنساب والأخبار والمآثر . ومنهم : على بن المغيرة أبو الحسن الأثرم النحوى ، المتوفى سنة ٢٣٢ قال فى البغية (٤) : (( وكان أول أمره يورق لإسماعيل بن صبيح )) (٥) . وكان لأبى عثمان الجاحظ أكثر من ورّاق : فمنهم أبو يحيى زكريا بن يحيى ، ذكره القالى فى الأمالى (١) ، وياقوت فى معجم الأدياء نقلاً عن ابن النديم (٢) . ومنهم أبو القاسم عبد الوهاب بن عيسى ، ذكره الخطيب فى تاريخ بغداد (٣) والزبيدي فى تاج العروس (٤) ، وكانت وفاته سنة ٣١٩ فيما ذكر الخطيب . وكان لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ورّاقون (٥) منهم ابن الزجاجى واسمه إسماعيل بن محمد . والساسى واسمه إبراهيم بن محمد . ومن هؤلاء الوراقين علان الشعبى (٦) كان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة . ومنهم أحمد بن أحمد ، ابن أخى الشافعى ، كان يورق لابن عبدوس الجهشيارى (٧) . ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم المعرى ، لزم أبى العلاء ونسخ له كتبه بأسرها ، بدون أجر (٨) . أما القاضى أبو المطرف ، قاضى الجماعة بقرطبة ، فكان له ستة ورّاقين ينسخون له دائماً ، ( وكان قد رتب لهم على ذلك وظيفة معلومة (٩) ) .